قراءة في كتاب (مقالات ودراسات في الشخصية العراقية)

لطفية الدليمي

يستهل الكاتب والباحث الدكتور فارس كمال نظمي كتابه هذا بمقطع من ملحمة كلكامش على لسان جد البشر الخالد (اوتونبشتم) يصف الأسى الذي يشعر به إزاء ما حلّ بالبشر وأمله ان تعود الحياة وآمالها إلى سويتها ومسارها الانساني :

إنني مكتئب بسبب مارأيت
وليس لدي أمل أن أرنو لشيء
سوى أن تعود الحياة للشباب المفقود
أن يعود الأطفال إلى أمهاتهم الباكيات
تعود الزوجات ..
وأن يعود الأصدقاء والبيوت والآمال
أريد أن أعيد كل ذلك لهم ...!

يكشف لنا اختيار الكاتب هذا المقطع المتعاطف مع محنة البشر والبليغ في اختزاله لأحزان الإنسانية عن فضاء اشتغال الكتاب وهدفه البحثي الذي تتجه إليه مداخلاته واستنتاجاته النظرية والمعطيات الإحصائية وما يتخللها من تحليلات وافتراضات وتساؤلات يعدها الدكتور نظمي مدخلا أوليا للتصدي للسؤال المركزي الذي سيكون مرتكزا لمقالاته ودراساته ..

يخبرنا المؤلف أن العلاقة بين الاقتصاد السياسي تشبه مجازا العلاقة بين التربة والنبات مع الأخذ بالحسبان المسارات الجدلية التي تتضمنها تلك العلاقة وتحليل أوجه متنوعة لسلوك الفرد العراقي يمكن أن تسهم في تفسير أبعاد عديدة غامضة من المشهد السياسي الفوضوي والدموي الذي وجدت الشخصية العراقية نفسها تتخبط فيه وربما يساعد على التنبؤ ببعض المسارات القادمة ..

يتصدى الكتاب– من وجهة نظر السيكولوجيا الاجتماعية – لعدد من الظواهر السلوكية والمستجدات النفسية التي برزت وتفاعلت في شخصية الفرد العراقي خلال السنوات الخمس التي أعقبت لحظة التغيير الدراماتيكية في ٩ نيسان ٢٠٠٣ ويطرح المؤلف الباحث سؤالا استهلاليا يلخص الهدف الفكري لكتابه :

(وماذا عن مصير المجتمع الذي شهد انهيار دولته هذه ؟ وماذا عن الشخصية الاجتماعية لفرد وجد نفسه بلا مؤسسات تمنحه الأمن والهوية الجمعية والثقة بجدوى الاجتماع البشري ؟؟) وتأتي جملة المقالات والدراسات والاستبيانات والاستطلاعات التي تضمنها الكتاب لتقدم إجابات متتابعة على هذا السؤال متبنيا فرضية المسارات الجدلية التي تنطوي عليها علاقة الاقتصاد السياسي بالسيكولوجيا الاجتماعية ويقع الكتاب في فصلين احدهما يتبع منهج التحليل النظري بينما يختص الآخر بمنهج الدراسات الميدانية الموثقة التي أجراها المؤلف ويشكل الكتاب بفصليه النظري والميداني محاولة هادئة لتوثيق العلاقات البنائية والوظيفية التي تحكم شخصية الفرد العراقي ، على خلفية مشهد سياسي عنيف ودموي – تم إعداد أجزاء من هذا المشهد بمعزل عن نسيج تلك الشخصية ..

وينطوي الفصل الأول على تشكيلة متنوعة من الدراسات ذات التوجه النظري فمنها رؤية نفسية في صور تعذيب السجناء العراقيين في أبي غريب وقراءة في قانون إدارة الدولة العراقية وحوار مع الدكتور كمال مظهر احمد عن الشخصية الكردية بين الهوية التاريخية والسمات المرحلية ومن بين المقالات ذات الأهمية الخاصة مقالة (العنف الجنسي ضد المرأة العراقية) و مقالة ـــ سيكولوجيا الانتخاب لدى الفرد العراقي وثقافة السلاح تنخر شخصية الطفل العراقي، وسيكولوجيا الحصة التموينية لدى فقراء العراق ، وعقدة الطابور في الشخصية العراقية ، وسيكولوجية المنطقة الخضراء ، وشارع المتنبي في الذاكرة الجمعية العراقية ومقالات أخرى تتنوع بين سؤال الهوية العراقية والثقافة العلمية والصحة النفسية للمجتمع العراقي وسيكولوجيا الفوضى المرورية في المدينة العراقية ، وأنماط الشخصية العراقية ..

ومن أبرز المقالات –على أهمية المقالات الأخرى – برأيي مقالة (الطفل العراقي ورأسمالية الحروب وسيكولوجية الثورة) وهي دليل عمل مدعم بالأرقام والإحصائيات المحلية والدولية لكل المعنيين بأوضاع الطفولة العراقية ممن يطمحون إلى تنشئة جيل سوي من أطفال العراق

مستقبلية قادرة على إدراك حاجاتها وتطلعاتها ، ويشير الباحث في هذا السياق إلى أوضاع الطفولة العالمية في ظل النزعة الأنانية للرأسمالية العولمية في احتكار الثروات ورؤوس الأموال وتكديسها ، وتوظيفها على نحو عدمي ووحشي ضمن آلية شمولية غامضة الحدود خفية الغايات ، مما أدى إلى تراجع النزعة الثورية الجمعية ،وبجهود الرأسمالية لاقتحام المسافة السببية المنطقية في النفس البشرية بين عنصري (الشعور بالحرمان) و (سلوك الاحتجاج والثورة) فأغرقت هذه المسافة بعوامل الخوف واليأس التي أفضت إلى ضمور الوعي الاجتماعي ولن يكون جيل الأطفال المقهورين الحالي في العراق خارج هذا الإطار .

٢

يصنف الباحث أنماط الشخصية العراقية الحالية إلى انماط محددة كإجابة على السؤال التالي :

– هل الفرد العراقي مسؤول عما لحق ببلاده من تشظ ودمار ؟؟ وتنبثق الإجابة من بديهية تقول ـــ إنّ أي مجتمع بشري يتعرض لأزمة وجود ومصير عميقة ، لابد أن يصنف من الناحية السيكولوجية إلى أنماط متنوعة بل ومتناقضة أحيانا ، فكما يرى الباحث أن مجتمعنا بات يتألف من شخصيتين رئيسيتين (شخصية هدمية عدوانية) و (شخصية بناءة مسالمة) ولكل من هاتين الشخصيتين ، شخصياتها الفرعية المتعددة ، فالشخصية الهدمية العدوانية لها أنماطها الفرعية التي يمكن أن تتحدد بناء على العوامل السوسيو –سياسية التي أدت إلى نشوئها وتطورها وهي :

١ الشخصية الهدمية الفاشستية
٢ – الشخصية الهدمية الإرهابية
٣- الشخصية الهدمية الطائفية

وتبقى الشخصية العراقية البناءة المسالمة ، التي تمثل أغلبية المجتمع العراقي مقابل الشخصيات الهدمية ، بخصائصها التاريخية المتمثلة بالتسامح ، التحضر ، قوة التحمل ، الابتكارية ، التكيفية ، الولع بالثقافة ، تمجيد قيم الحياة ، والتفتيش عن الإيجابيات في الآخر المختلف والتدين الهادئ ، وتشكل هذه الشخصية المسالمة البناءة ، بنوعها وكمها المادة الاساسية العظمى من النسيج الاجتماعي العراقي التقليدي ..

يتناول الباحث موضوعة الهوية العراقية ويتساءل : تأصيل الهوية أم تطييفها ؟؟ والهوية شأن متغير بحسب الظروف والمكتسبات إنما تبقى الهوية الجامعة ملاذا في الأزمات والمنعطفات التاريخية ، ويرى الكاتب هنا أن الهوية ليست مفهوما مطلقا جامدا يتراوح بين الغياب الكلي والكينونة الكلية ، بل هي بناء اجتماعي مرن متعدد الغايات والكينونات قادر على إنجاز تحولاته وتمظهراته بما يتلاءم مع سيكولوجية اللحظة الراهنة وان متانة الهوية الوطنية لاتتناقض بالضرورة مع وجود هويات فرعية لتلك الجماعة بل قد تنشأ حالة من التكامل بين البعد الوطني والديني للهوية الاجتماعية ..

يختص الفصل الثاني من الكتاب باستطلاعات الرأي المختلفة المدعمة بالإحصائيات و التي تمثل عملا ميدانيا متعدد الجوانب فهناك استطلاع الراء طلبة الجامعات في وسط العراق وجنوبه بالتطورات السياسية في بلادهم وثمة رؤية نظرية واستطلاع ميداني يمثل تحليلا نفسيا لشخصية العسكري الأمريكي في العراق واستطلاع آخر عن صورة العسكري الامريكي في العقلية العراقية واستطلاع مقارن حول آراء طلبة الجامعة في بغداد والكوت حول الانتخابات واستطلاع لآراء شرائح متنوعة حول ذبح المخطوفين واستطلاع عينة من حملة الشهادات العاطلين واستطلاع عن البيئة العراقية والرشوة والثقافة الدستورية والصورة النمطية لخصائص العنف في الشخصية العراقية وتقصٍ ميداني لسايكولوجية المواجهة بين حضارتين وكيف ينظر المثقف العراقي إلى الولايات المتحدة الأمريكية ويفتح هذا الكتاب أفقا جديدا لدراسة المجتمع العراقي والشخصية العراقية في ضوء المتغيرات التي أفرزها سقوط النظام الديكتاتوري والاحتلال والعنف الأهلي ..

تلويحة المدى

شاكر لعيبي

لا جغرافيا للشعر

تتنقل الجغرافيات الشعرية في العالم العربي لأسباب غير شعرية تقريباً. بعضها يتعلق بالوضع الجيو–سياسي، الآخر بالثقل الاقتصادي، والثالث بوضع تاريخي أو فكرة سياحية ثابتة عن بلد ما. كلها لا تتعلق بالشعر ولا بالشعرية. فالتغيرات التي طرأت على العراق مثلاً من حروب وحصار وقمع من كل نوع أثرت على مكانة الشعر العراقي وخففت من حضور شعرائه في الوعي العربي. إن جميع صنوف المواقف والمشاريع الشعرية والممارسات الشخصية الرفيعة والمعيبة إنما هي تعبير عن انحسار "صورة الشاعر" ووضعيته في العراق. لا وزنَ يؤخذ عربياً على ما يبدو لشعر مقتلع من جغرافيته مهما كانت عظمته. يبرهن بعض الشعر الفلسطيني على ذلك بالمقلوب، فإن اقتلاع الوطن الجغرافي بالعنف وأن استعارة الأرض – الأم الكبرى المنتهبة ظلت حاضرة في كل مكان من العالم.

من جهة أخرى يمكن ملاحظة أن المكانة التي صار يحوزها، أقلها، الشعر النبطي والشعبي في منطقة الخليج والسعودية بحيث تُكرَّس له صفحات طوال في كبريات اليوميات والدوريات، إنما تنبع من الوزن الاقتصادي لتلك المنطقة، والثقل بل الضغط الذي يمارسه محبّوه من كبار المسؤولين في الدولة. في الترويج للشعر النبطي ثمة توطين ثقافي قادم من أصول ليست سجالية معرفية بالضرورة، في فضاء جغرافي يتوجب عليه، نظريا، الدفاع المستميت عن لغة الضاد الفصحى.

في البلد الواحد نفسه يصير الركون إلى دعم السلطة وأموالها رافعة لشهرة هذا الشاعر، وغمط حق ذاك. ولعل الأهمية الممنوحة لبعض الشعراء، محليا وعربياً، في سلطنة عمان خير مثال على دوافع خارجية. في العراق الأيديولوجي يمكن الحديث عن سامي مهدي وحميد سعيد كمثال للمسألة في سياق آخر. ويمكن القول إن الجغرافيات الجديدة للشعر العربي المنبثقة بسبب سلطة المال، وليس الأدب هي التي دفعت شعراء وروائيين لطباعة مجاميعهم (الكاملة أحيانا) وروايتهم على حسابهم الشخصي في أهم دور النشر العربية كالفارابي والساقي والآداب. من الواضح أن هذه العناصر كلها ليست أدبية ولا جمالية. كما أن انتقال مهرجانات "قصيدة النثر" إلى القاهرة مؤخراً يستجيب إلى فكرة ريادة مصر الثقافية التاريخية، وأن الأستاذية الافتراضية التي يمارسها بعض الشعراء في لبنان (وهم قلائل) على أقرانهم، بغض النظر عن المستوى الجمالي الفعلي لهذا وذاك، ليسا سوى مثالين على وضع تاريخي مستتب، وأحياناً افتراضي، في الذاكرة الثقافية والشعرية العربية. ثمة جغرافيات متحوِّلة، وهوامش صارت مراكز، لا تؤخذ بالحسبان بسبب هذا الوضع.

كل ما نذكره هنا هو أمثلة محسوسة يتهرّب البعض من قولها انسجاماً مع أوضاع جيو–سياسية جديدة، أو "قبولاً" بسطوة من طبيعة اقتصادية أو إقراراً بحقيقة تاريخية بحاجة إلى إعادة فحص. وكلها لا تستطيع الإفلات من فكرة أن هذه الجغرافيات لا يَعترف بها الشعرُ الحقيقيُّ لو أننا عرفناه حقاً. الشعر يقع خارج الجغرافيا، وهو يقف بعيداً عن الجغرافيات المتوهَّمة التي تبالغ بخصوصياتها المحلية، خاصة في الدول حديثة الولادة نسبياً.

جميع الأسباب المذكورة عميقة، لكنها طارئة في نهاية المطاف، ولا تستطيع، في تقديري، مراكز القوى الشعرية القائمة على تلك الأسباب أن تُنجز مشروعاً شعرياً أصيلاً دون توافر الموهبة والحرقة الوجودية. احتفالات ومهرجانات الشعر التي انتقلت فجأة من المربد العراقي إلى جرش الأردني دليل قوي آخر. يحضر كل شيء في هذه المهرجانات ويختفي أو لا يُرحّب بالجوهري، حتى أن بعضا من أهمّ الأصوات الشعرية العربية لم تكن تُدعى إليها. تلك الأصوات الغائبة تشتغل في الجغرافية الوحيدة الجديرة بالشعر: العزلة المرِحة في فضاء شخصيّ خصب، يقع خارج الخريطة العربية.

موسيقى السبت

خماسية البيانو لشوبرت

ثائر صالح

من بين أشهر أعمال النمساوي فرانس شوبرت ١٧٩٧–١٨٢٨ إلى جانب سيمفونيته الثامنة (الناقصة) وكثير من الأغاني (الأغنية بالألمانية ليد) وأعمال البيانو وموسيقى الحجرة (لعدد محدود من الأدوات الموسيقية). وشوبرت أحد عباقرة الموسيقى، فبرغم وفاته في سن مبكرة وهو في الحادية والثلاثين، ونجاحه المحدود في حياته القصيرة، فإنه غدا أحد أهم الموسيقيين في التاريخ الأوروبي بسبب النظرة الجديدة التي تعامل بها مع المادة الموسيقية. فقد ألف نحو ١٠٠٠ عمل موسيقي برغم حياته القصيرة، منها ٦٠٠ أغنية. كان كلاسيكي الانتماء والأسلوب، لكن أعماله كانت مثقلة ببذور الرومانتيكية، ويمكنني القول بكل ثقة إنه واحد من أهم الموسيقيين الذين مهدوا الطريق أمام المدرسة الرومانتيكية في الموسيقى. إذ سبق الكثير من أعماله وخاصة سيمفونياته الثامنة (الناقصة) والتاسعة عصرها بنحو نصف قرن أو أكثر. يعتبر الأب الروحي للأغنية الألمانية التي يؤديها مغن بمصاحبة البيانو عادة، وتستند إلى نص شعري متميز. والأغنية (ليد) تتميز عن الأغنية الاعتيادية، الشعبية أو المكتوبة، أو الأغنية التي تستل من الأوبرات الناجحة وتصبح مستقلة عنها لجمالها.

ألف شوبرت خماسية البيانو في لا الكبير (لبيانو وكمان وفيولا وتشيلو وكونترباص) الشهيرة باسم خماسية السلمون وهو في الثانية والعشرين من العمر، في وقت ساد فيه بيتهوفن على الموسيقى الفيينّاوية دون منازع. لكنها لم تنشر إلا سنة ١٨٢٩، بعد عام من وفاته، وعامين بعد وفاة بيتهوفن. عرفت باسم سمك السلمون بسبب حركتها الرابعة التي استخدم شوبرت فيها تنويعات على لحن أغنيته المعنونة (Die Forelle) أي سمك السلمون. اشتهرت هذه الخماسية بسبب طابعها الممتع الخفيف، وبسبب لغتها الهارمونية المميزة المبتكرة، كانت وقتها عملا تجديديا غير معتاد.

نافذة ضوء

المعمار د. خالد السلطاني:

وجدت في العمارة الإسلامية تأسيساً لأجناس إبداعية كبرى

محمود النمر

حين يشير المعمار والأكاديمي خالد السلطاني إلى فن العمارة ،يعني أن هناك شيئا مدهشا،هو يرصد هذه الدهشة في الفن المعماري ،ويجسد القيمة الفنية للأثر الفني الحضاري والمديني في الوقت الحاضر، حين سألته عن مقومات الفن المعماري الإسلامي وآثاره في سفر التاريخ الإنساني أجابني عن انشغلاته بهذا الفن الجميل الذي يحاول بعض المتشددين إخفاءه تحت سلطة تحريم النص !!.

= أنا الآن منشغل بموضوع لم يأخذ حقه من الدارس ، وأنا أتكلم من الناحية المعمارية وليس من الناحية الفنية ،أتكلم عن مرحلة في العمارة الإسلامية ،كلنا نعرف خطأ أن العمارة الإسلامية هي عمارة جوامع وتكايا وحسينيات إلى آخره ، وهذا هو الجانب الديني وقد اخذ حقه من الدرس، أما الجانب الآخر وهو الجانب المدني لهذه العمارة ،للمدن الإسلامية التي كانت في السابق وكيف كان السكن والتطلعات المدنية ،وانشغالاتهم اليومية ، هذا الجانب في الحقيقة لم يأخذه حقه من ناحية الدرس بما يكفي ،وهو يعادل قيمة المنجز ،لذلك أنا الآن معني بدراسة ما يسمى بالقصور– الأموية – وأنت تعرف أن الأمويين هم مؤسسو الفن والعمارة الإسلامية ،وقد بدأت العمارة الإسلامية تتمظهر بشكلها الجلي أثناء الحكم الأموي ،وهذه مسألة تاريخية.

ليس لنا علاقة بالحكم الأموي سو اء كان جيدا أم غير جيد ،نحن نتكلم عن مسألة تاريخية ، تأسست فيها العمارة الإسلامية بهذا التاريخ، وكونت منجزات جميلة جدا مثل – الجامع الأموي – وقبة الصخرة – والمسجد الأقصى – وهذه الآثار كلها في العهد الأموي ، وعلى إثرها أصبحت هي التي تمثل نموذجا لجميع المساجد المنتشرة في العالم ، من قرطبة إلى الهند ،ولكن أنا مهتم بالجانب المدني لفعالية العمارة الإسلامية ،فأخذت– القصور الأموية – وكان الأمويون مغرمين ببناء القصور في بوادي الشام والأردن وفلسطين وحتى لبنان – وهذه قصور عكست الحياة المدنيّة للناس في ذلك الزمن ، وهي للخلفاء في الوقت نفسه،وأنا أدرسها أو هي عملية إعادة قراءتها بشكل جديد ،وفق معايير النقد المعاصر ، وقد وجدت فيها فعلا تأسيس لأجناس إبداعية جميلة ،اختفت أثناء تطور المجتمع الإسلامي ، أصبح هذا الحظر على الرسم والنحت لأنه هو كأساس للفن ،في حين بذلك الزمن ما كان هذا الحظر ،يعني أنا توصلت إلى قناعة ،بأن فن النحت والرسم والشخوص هذ ه جزء من المنتج الإسلامي ، أنا رأيت في – قصر الحيرة الغربي – الموجود في الشام المشيد في ٧٢٠ميلادية فيه لوحة طولها ١٨ مترا وعرضها ١٢ مترا كبيرة ومرسومة بحجوم الشخوص الحقيقية ، وهم يعزفون على الآلات التي شاهدوا فيها – الوتر – الخامس وهذا أثار حفيظة المؤرخين ،لأن زرياب يعود له الفضل بإضافة الوتر الخامس ، وكان هذا في العصر العباسي ثم إلى الأندلس ،وكانت تلك اللوحة إلى الخليفة وهناك مغنية تعزف ،وأيضا في قصر – عمرة – في الأردن ،توجد شخصيات ونساء عاريات وهنّ محظيات الخليفة ، وكذلك شخص الخليفة في الصيد ،وهو تصوير لجزء ما كان يجري بشكل عام ، كان هذا في عصر الوليد بن عبد الملك .

• هناك من يقول إن الإسلام يحرم فن الرسم أو النحت منذ ذلك الحين ؟.

= هناك شك في هذه الطروحات ،لماذا هذا الشك ؟ لأن عملية تأويل النص أصبحت لاحقا هي الأساس ،يعني نُسي النص وأصبحت عملية التأويل والتفسير هي جزء من المعرفة الأساسية ،الآن جزء من الناس عندما يقرؤون القرآن لم يفهموه ،بقدر ما يفهمون التفسير ،والتفسير لشخص ما وهو يجتهد في تفسير النص ،وأصبح التفسير هو المقدس وليس النص .

×وكيف يتصرف الإنسان في ذلك ؟

=هذه عملية غريبة لابد من الرجوع إلى النص المقدس الذي يحدد بشكل واضح المعالم ، فإن التفسير والتأويل يختلفان ولهما علاقة مشتركة بالناس وبالسلطة والرغبات وفعلا – القرآن – هو حمال أوجه ولكن في طريقة التفسير والتأويل فقط .

×إذن لم يكن هناك من نص للتحريم ؟

=إن هذه التفاسير للنصوص تدحضها الممارسة الجميلة للرسوم واللوحات التي وجدت منذ ذلك العهد ، ولهذا أنا في اعتقادي لم تأخذ حقها في الدرس ،لأن هناك إشكالية كبيرة الآن في هذه المعضلة .

وكيف يتم اختراق هذه المعضلة ؟

الآن أنا فعلا معني بإعادة قراءة هذه العمارة وهذا المنجز ،لأن القيمة الفنية في هذه المنشآت ، لها قيمة موازية للمنتج المعماري ،وهذه أيضا عملية جدا مهمة ،لأن ليس فقط العمارة تشكل حضورها ،وإنما الحضور الجزء التزييني والفن في هذه العمارة ، وهذا هو جزء من العمارة الإسلامية .

× وما أهمية الفن المعماري في العصر العباسي ؟

= أكيد أن في العصر العباسي توجد عمارة مثل في – سامراء – وعني مدرسة سامراء فيها رسومات وزخرفة جميلة جدا وكذلك – قصر الاخيضر – توجد فيه قيم جمالية وزخرفية ربما تلاشت الآن وهذا لايعني أنها غير موجودة أساسا لأن – قصر الأخيضر – هو يكرر ما موجود في العصر الأموي من ناحية التخطيط ، وقد سقط حكم الأمويين عام ٧٥٠ ميلادي، وقصر الاخيضر يمثل منجزا معماريا مهما في المشهد العالمي المعماري وهو يكرر ما بناه الرومان في بناء – الفلل – القديمة وحدث انقطاع من زمن الرومان إلى أن جاء العصر الأموي بدأوا يبنون هذه – الفلل – المدنية والبوادي لان هناك حضرية وريفية ،وكانت تستخدم في الصيد والى الآن هناك أسباب كثيرة من جملتها الصيد والراحة وجملة أسباب أخرى .

×أنت تميط اللثام عن تاريخ مهم في سفر العمارة والفن الإسلامي؟

= أنا متواضع في مسعاي وأحاول فعلا أن أمنحه ضوءا إلى هذا المنتج الجميل والرائع والمؤثر وجيد وقد أثرى العمارة العالمية وليس فقط العمارة المحلية.